

قصيدة (فلسفة الحياة) لإيليا أبي ماضي: قيامة التفاؤل والتفكير الإيجابي

سهيل بي. ك.

أستاذ مساعد، قسم العربية، الكلية الحكومية، كاسركود، كيرلا، الهند



ولا شك أن الدراسات حول التفاؤل والتفكير الإيجابي من بنات الوقت الراهن حيث أُلغ فيهما علماء النفس من كل البلاد طبق تطور علم النفس بجميع فروعها. فظهرت أصول ومبادئ كما وضعت الإتجاهات الخاصة بها. فإن الاهتمام بمفهومي (التفاؤل والتشاؤم) ودراستهما بشكل مفصل في إطار علم النفس لم يحدث بشكل منظم إلا في أواخر السبعينيات من القرن الماضي. فقد نشرت آنذاك دراسات قليلة ومتفرقة حتى ظهر أول كتاب أسهم في بلورة هذا المجال، وكان تحت عنوان " التفاؤل : بيولوجية الأمل " صاحبه " تاجر " Tiger (١٩٧٩) (١)، ثم تزايدت البحوث زيادة مضطردة. هذا على المستوى العالمي، أما على المستوى العربي فإن الاهتمام بالتفاؤل والتشاؤم فيما نعلم قد بدأ في العام ١٩٩٥ فقط. ثم خضع هذا الموضوع إلى عدد من الدراسات والأبحاث النظرية المختلفة في دول متعددة (٢). ولكن مما يجلب الدهشة والغربة أن ' إيليا أبو ماضي' قد سبق إلى مثل تلك المبادئ ودعا الناس إلى التفاؤل في الحياة.

مفهوم التفاؤل والتفكير الإيجابي

التفاؤل: من الفأل، وهو قول أو فعل يستبشر به، (٣). والتفكير الإيجابي هو التفاؤل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، والنظر إلى الجميل في كل شيء. ومن منظور علم النفس توجد تعريفات عديدة للتفاؤل. منها ما يلي: التفاؤل: النظرة الإيجابية والإقبال على الحياة، والاعتقاد باحتمال حدوث الخير أو الجانب الجيد من الأشياء، بدلا من حدوث الجانب السيئ، كما أن التفاؤل استعداد يكمن داخل الفرد الواحد، يتركز في التوقع العام لحدوث الأشياء الجيدة أو الإيجابية، أي توقع النتائج الإيجابية للأحداث القادمة (كارفر Carver) (٤). التفاؤل نظرة استبشار نحو المستقبل، تجعل الفرد يتوقع الأفضل، وينتظر حدوث الخير، ويرنو إلى النجاح ويستبعد ما خلا ذلك (د بدر محمد الأنصاري) (٥)

إيليا أبو ماضي شاعر التفاؤل

لم يعرف في القرن العشرين شاعر كان أكثر تفاؤلا ودعوة إلى الإقبال على الحياة من إيليا أبي ماضي. اشتهر شعره بالتفاؤل والبهجة والإقبال على الحياة ما عدا قصيدته "الطلاسم" التي غلب عليها الإحباط. يسميه النقاد: شاعر الأمل والتفاؤل. إنه نزع إلى البسمة وأولد الضحكة وجهد لرسم الفرحة كوكبا متألقا على الثغر. وفي وصف شخصية إيليا أبي ماضي قال د. عبد المجيد الحر: " أما أبو ماضي الواضح المعالم، الصافي الرؤي، فهو الشاعر المغني، طرب الدنيا وأناشيدها المفرحة ليبعث في نفوس القراء زهوة المسرة والفرحة بعيدا عن التوقع في زاوية الإعتزال والنسيان. وهذه

١ ليونل تاجر عالم نفساني أمريكي، ولد ٥ فبراير ١٩٣٧ في كيوبا

٢ د فضيلة عرفات - مقالة "التفاؤل والتشاؤم مفهومها أسبابها والعوامل المؤثرة فيها"، مركز النور للدراسات. ٢٠٠٩-٣-١٢

٣ د بدر الأنصاري- التفاؤل والتشاؤم المفهوم والقياس والمتعلقات، لجنة التأليف والتعريب، جامعة الكويت ١٩٩٨، ص ١٣

٤ Definition and History Research Article 1998

٥ د بدر محمد الأنصاري- التفاؤل والتشاؤم المفهوم والقياس والمتعلقات، لجنة التأليف والتعريب، جامعة الكويت ١٩٩٨، ص ١٦

الإيقاعات العذبة السابحة في خيال الإيناس، ودفع الآخرين إلى رياض التفاؤل بالغد المشرق الريان" (١). وهو لبناني الأصل ولد في عام ١٨٨٩م في بلدة المحيثة - المتن الشمالي بلبنان في عائلة متواضعة الحال، تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة المحيثة، ثم انتقل إلى مصر وظل بها ١١ سنة يشتغل في التجارة . ومن هناك قرض الأشعار وظهر أول ديوان له باسم " تذكّار الماضي ". ثم هاجر إلى أمريكا والتحق برفاقه من أصحاب الرابطة القلمية أمثال جبران ونعيمة.

الأفكار الرئيسية في قصيدة "فلسفة الحياة"

الأولى : سلامة النفوس أساس المسرة

الإنسان هو الذي يضيق عيشه بيده، يشيع جو الحزن والكآبة حوله، بما يصور لنفسه من سينات الحياة وشرورها، يفكر في الأمس وبلانه وفي الغد وظلمه، فعليه أن يتخلص من هذه الهموم الثقيلة التي تنتشر في حياته الحزن والسواد والخوف، فنفس الإنسان هي التي تعكس له الحياة، إمّا نقيّة جميلة، وإمّا كدرة قبيحة، فالعبرة بالنفوس لا بقيم الأشياء في ذاتها، فمن كانت نفسه سليمة جميلة رأى الحياة سارة بهيجة، ومن كانت نفسه مريضة رآها مشوهة كريهة، يقول الشاعر:

إنَّ شرَّ الجنّة في الأرض نفس تتوقى، قبل الرّحيل ، الرّحيل

والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئا جميلا

الثانية : التفكير الإيجابي

يدعو الشاعر الإنسان إلى التفكير الإيجابي والانتصار به على كل ما يواجهه في الحياة من تحديات وصعوبات. يؤكد أنه لا يوجد رجل أشقى ممن يرى العيش مرا، وأن أحكم الناس أناس يحسنون التعليل للحوادث. ولذلك ضع كل ما سبب لك الأذى والازعاج في الماضي وراء ظهرك، فالتركيز على تلك الأمور سيجعلك تشعر بالمرارة والحسرة ويمنعك من متابعة حياتك بشكل طبيعي، وبدلاً من ذلك تذكر كل ما هو إيجابي وجميل من الماضي. ومن المهم أن تتذكر أيضاً أن ماضيك لا يحدد مستقبلك وقد لا يكون الماضي من صنع يديك ولكن المستقبل يجب أن يكون كذلك. ومن أقواله:

ليس أشقى مَن يرى العيش مرا ويظنّ اللذات فيه فضولا

أحكم الناس في الحياة أناس علّوها فأحسنوا التعليل

الثالثة : الإنتباه بالتفاؤل في الطبيعة

يستدل الشاعر بنماذج من التفاؤل في الطبيعة ويدعو إلى الإنتباه به، وذلك أن الطيور التي تتحلّق في السماء أدركت بفطرتها حقيقة أمرها وفهمت قيمة الحياة واستمتعت بالروابي، وهذه الطيور لا تعباً بالصائدين وتستمر في استمتاعها وهي تعلم أن عمرها لن يتعدى إلا أشهراً قليلة من العام، ومن العيب عليك أيها المتشائم أن تظل جاهلاً بفطرتك. فالتمس في حياتك كلما يسعدها واترك كلام الناس غير النافع الذي يبعدك عن اكتساب الجمال من حولك .

أدركت كنهها طيور الرّوابي فمن العار أن تظل جهولا

تتغنّى ، وعمرها بعض عام أفتبكي وقد تعيش طويلا؟

الرابعة : الاعتزاز والقناعة

يبين الشاعر أن الحياة ليست مكاناً للشقاء الإنساني حيث أن الإنسان مصيره إلى التراب مهما كان ملكاً أو عبداً. ويدعو المتشائم بالاستمتاع بكل لحظة تمر عليه فإذا وجد بقعة ظليلة وقت الهجير فليستظل بها ولا يفكر في كون الظل سيتحول

١ د. عبد المجيد الحر - إيليا أبو ماضي باعث الأمل ومفجر ينباع التفاؤل، دار الفكر العربي بيروت ١٩٩٥ ص ١٣٧

عنها. تظهر الدنيا من حوله زاهية مشرقة، وإن ادلهمت من جانب فلا تلبث أن تضيء وتثير من جانب آخر. فليمرح ولينعم باللحظة التي هو فيها، وليطرح كل هم عن ظهره، وليطرد خوف الموت عن نفسه، إنه لم يأت للحياة ليشقى ويجمع الهموم على صدره:

أنت للأرض أولا وأخيرا كنت ملكا أو كنت عبدا ذليلا
وإذا ما وجدت في الأرض ظلا فتفتيا به إلى أن يحولا

الخامسة: تحسين المعاملات الإجتماعية

وفي أواخر قصيدته يدعو إلى النهوض بنشر السعادة بين الناس لأن السعادة إحساس متبادل بينهم . يطلب من الإنسان أن يكون مثل العصفور الذي يتغنى سعيدا في كل وقت حتى وهو محبوس في القفص، و النهر الصافي الذي يسقي الحقول على جانبيه فيحيي الأرض ويبث فيها السعادة فيشرق بالأمل في الآخر، و نسمة الفجر العليقة التي تمتع الطبيعة والزهور بالشم والتقبيل، وكوكب منير يسري الغابات والنهر والربى والسهول في وقت الليل كما يطلب أن لا يكون متشائما كالغراب الذي قبل الذل باحثا عن دودة الأرض طعاما له أو كالبومة التي تنعب ليلا باكية على الأطلال، والإناء الذي حبس فيه الماء حتى صار راكدا نتنا يستحيل الانتفاع به ، والرياح الحارة المحملة بالغبار فتملأ الأرض خوفا ورهبة وصياحا وعويلا ، والظلام الحالك الذي يكره العالم بأسره فيغطيه بالأستار كأنه الميت ثم يدعو الشاعر هذا الإنسان بأن يجعل الجمال في نفسه فسيرى الوجود جميلا ويسعد به دون شقاء حيث قال " كن جميلا ترى الوجود جميلا ". استخدم الشاعر كلمات العصفور والنهر الصافي والنسيم والكوكب كناية عن الرجل السعيد الذي يتعامل مع الناس ويقضي الأوقات لخدماتهم ويلقي إليهم أقوال الهدوء والسلام ويرشدهم إلى الطريق السوي. ومن سطورهم:

كن هزارا في عشته يتغنى ومع الكبل لا يبالي الكبولا
كن غديرا يسير في الأرض رقراقا فيسقي من جانبيه الحقولا

مقترحات القصيدة لتقوية التفاؤل

وعند إجابة النظر في هذه القصيدة نجد اقتراحات على استقامة الحياة وابعاد الأفكار السلبية، منها ما يأتي: إجعل الجمال من عناصر النفس، وبعاد عن الانفراد والعزلة، والتمس السعادة من الطبيعة، وتمسك بثقة النفس والإرادة، وإجعل التفكير إيجابيا، واكتف بالنصيب من المعيشة، وأترك القال والقيل، وغير النظرة نحو الوقائع والحوادث، واعتز بالنفس

الخاتمة

جمعت هذه القصيدة كثيرا من مبادئ علم النفس ونظرياته التي أقبل عليها علماء نفساني فيما بعد. وفي الحق أن قصيدة "فلسفة الحياة" لإيليا أبي ماضي تنعكس فيها شعور قلبه وخواطر نفسه من التفاؤل والأمل في الحياة. ينصح الناس بملازمة الموقف الإيجابي عند المحن والأزمات، وبتغيير النظرة نحو الحوادث لأن الإنسان لا يقدر أن يغير الواقع، كما ينصح إزالة الأفكار السلبية. فالأفكار السلبية هي التي تجعل الحياة تعسة ويائسة.

المصادر والمراجع

- (١) د. عبد المجيد الحر - إيليا أبو ماضي باعث الأمل ومفجر ينابيع التفاؤل، دار الفكر العربي بيروت ١٩٩٥
- (٢) د. بدر محمد الأنصاري- التفاؤل والتشاؤم المفهوم والقياس والمتعلقات، جامعة الكويت ١٩٩٨
- (٣) الخوري- إيليا أبو ماضي شاعر الجمال والتفاؤل والتساؤل، بيت الحكمة، الموصل ١٩٨٢
- (٤) إيليا أبو ماضي- ديوان أبي ماضي، دار العودة بيروت ١٩٧٥
- (٥) نادرة سراج- شعراء الرابطة القلمية، دار المعارف، مصر ١٩٥٧
- (٦) د. سعد دعبس- قضايا الشعر المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٥
- (٧) شوقي ضيف- دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣
- (٨) د. محمود شوكت، درجاء محمد- مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الحديث الكويت ص ٢٣١